

اللغة والهوية في الخطاب الشعري المصري الحديث زمن العولمة بين لسان
الأرض ورياح العالم (دراسة موضوعية فنية)

**Between the Voice of the Earth and the Winds of the World:
Language and Identity in Modern Egyptian Poetry in the
Age of Globalization (A Thematic and Aesthetic Study)**

Dr. Yasmeen Akhtar

*Assistant Professor, Department of Arabic
International Islamic University Islamabad
Email: yasmeen.akhtar@iiu.edu.pk*

Dr. Abu Bakar Bhutta

*Assistant Professor, Department of Arabic
National University of Modern Languages, Islamabad
Email: mabhutta@numl.edu.pk*

Abstract

This study examines the dialectic of language and identity in modern Egyptian poetry in the age of globalization, focusing on the intricate relationship between poetic language, place, memory, heritage, and global transformations. It proceeds from the premise that globalization is not necessarily a force that uproots identity; rather, it may become a space in which identity is rediscovered, reinterpreted, and creatively reshaped. The study demonstrates how the Nile, the land, the city, heritage, and religious and popular symbols transcend their local references to embody universal human questions. It further argues that genuine universality does not emerge through the erasure of cultural particularity, but through transforming that particularity into a language of dialogue with the Other. The study ultimately concludes that modern Egyptian poetry can unite **the depth of roots with the breadth of horizons**, and that the voice of the land becomes universal when it speaks authentically for the human being.

Keywords: Modern Egyptian Poetry; Language; Identity; Globalization; Place; Nile; Heritage; Symbolism; Universality; The Other

الملخص:

تبحث هذه الدراسة في جدلية اللغة والهوية في الخطاب الشعري المصري الحديث في زمن العولمة، من خلال تحليل العلاقة بين اللسان الشعري والمكان والذاكرة والتراث والتحويلات العالمية. وتنطلق من فرضية أن العولمة لا تمثل بالضرورة قوة لاقتلاع الهوية، بل يمكن أن تكون مجالاً لإعادة اكتشافها

وإعادة صياغتها. وتكشف الدراسة أن النيل والأرض والمدينة والتراث والرمز الشعبي والديني تتحول في القصيدة من عناصر محلية إلى علامات قادرة على حمل أسئلة إنسانية كبرى. كما تبين أن العالمية الحقيقية لا تقوم على محو الخصوصية، وإنما على تحويلها إلى لغة للحوار مع الآخر. وتنتهي الدراسة إلى أن القصيدة المصرية تستطيع الجمع بين عمق الجذور واتساع الأفق، وأن صوت الأرض يصبح عالمياً حين يعبر بصدق عن الإنسان.

الكلمات المفتاحية:

الشعر المصري الحديث؛ اللغة؛ الهوية؛ العولمة؛ المكان؛ النيل؛ التراث؛ الرمز؛ العالمية؛ الآخر.

المقدمة

في زمن تتسارع فيه رياح العولمة، وتتقارب المسافات حتى تكاد الأرض تفقد حدودها، لم تعد اللغة مجرد أداة للتخاطب، ولا الهوية مجرد انتماء إلى مكان؛ بل غدتا سؤالاً وجودياً يتصل بذاكرة الإنسان ووعيه بذاته وموقعه في العالم. فحين تتكاثر الأصوات القادمة من وراء الحدود، ويصبح العالم فضاءً واحداً تتداخل فيه الثقافات والصور والرموز، يقف الشاعر أمام سؤال خفي وعميق: كيف يحفظ لسان الأرض صوته، وهو يستمع إلى رياح العالم؟ ومن هنا تنبع أهمية الخطاب الشعري المصري الحديث؛ إذ يقف في منطقة خصبة بين جذور المكان واتساع الأفق، وذاكرة التراث وضغط الحداثة، وخصوصية الهوية وإغراء العالمية. فمصر ليست في الوعي الشعري مجرد جغرافيا، وإنما هي ذاكرة ممتدة، ونهر يختزن في مائه طبقات من التاريخ، وأرض تتجاوز فيها الحضارات والأصوات والأساطير والحنين.

واللغة في هذا السياق لا تكون قشرة خارجية للنص، بل تصبح مستودعاً للروح؛ تحفظ أسماء الأشياء حين يهدد النسيان ملامحها، وتعيد وصل الإنسان بمكانه حين تتسع دوائر الاغتراب. ولذلك فإن تغير اللغة الشعرية وتحوّل معجمها وصورها وإيقاعاتها لا يمكن فصله عن تحولات الوعي بالذات والآخر. أما العولمة، فإنها لا تظهر في الخطاب الشعري بوصفها ظاهرة اقتصادية أو تقنية فحسب، بل بوصفها رياحاً ثقافية تعيد ترتيب علاقة الإنسان بمكانه وذاكرته وحدوده الرمزية. وهي رياح ذات وجهين: قد تحمل معها خطر الذوبان والاستلاب، لكنها قد تحمل كذلك إمكان التواصل والانفتاح ووصول الصوت المحلي إلى أفق إنساني أوسع. ومن هنا لا تنطلق هذه الدراسة من ثنائية مغلقة تجعل التراث خيراً مطلقاً والعولمة شراً مطلقاً، وإنما تسعى إلى قراءة المساحة التي يقف فيها الشاعر بينهما؛ حيث يتفاوض الماضي مع الحاضر، ويتجاوز المحلي مع العالمي، وتعيد القصيدة اكتشاف هويتها وهي تعبر حدودها. إن السؤال الحقيقي ليس: هل ينبغي للشاعر أن يفتتح على العالم أم يغلق على تراثه؟ وإنما: كيف يفتتح دون أن يذوب، وكيف يحافظ على جذوره دون أن يتحول إلى أسير لها؟ ومن

هذا السؤال تتشكل إشكالية البحث الرئيسة: كيف تجلّت العلاقة بين اللغة والهوية في الخطاب الشعري المصري الحديث في زمن العولمة؟ وكيف استطاعت القصيدة أن توازن بين حفظ خصوصيتها الثقافية والانفتاح على الفضاء الإنساني العالمي؟

وتتفرغ عن هذه الإشكالية أسئلة تتصل بحضور المكان والتراث والذاكرة في اللغة الشعرية، وبكيفية تمثيل الآخر والعالم، وبالتحويلات التي طرأت على المعجم والصورة والرمز والإيقاع، وبمدى قدرة الشعر المصري على تحويل تجربته المحلية إلى خطاب إنساني يتجاوز حدود الجغرافيا. وتعتمد الدراسة المنهج الموضوعي في استقراء ثيمات اللغة والهوية والعولمة، والمنهج الفني في تحليل آليات التعبير الشعري من معجم وصورة ورمز وإيقاع، مستفيدةً — عند الحاجة — من المقاربة الثقافية التي تكشف علاقة النص ببيئته التاريخية والاجتماعية والحضارية. ولا تهدف الدراسة إلى إثبات أن العولمة قد قضت على الهوية، ولا إلى تصوير الهوية باعتبارها كياناً جامداً يخشى الحركة، بل تحاول أن تكشف كيف تتجدد الهوية حين تدخل في حوار مع العالم؛ فالهوية الحية ليست حجرًا يحرس الماضي، وإنما جذور تمتد في الأرض لتمنح الشجرة القدرة على استقبال الريح. ومن ثمّ تنظر هذه الدراسة إلى القصيدة المصرية الحديثة بوصفها فضاءً رمزياً تتجاوز فيه الأرض والريح، والنهر والبحر، والذاكرة والمستقبل، والجذر والأفق؛ فضاءً يحاول فيه الشاعر أن يصون نبرة صوته الخاصة، وهو يشارك في الجوقة الإنسانية الكبرى. ولعلّ أجمل ما يمكن أن تختصر فيه هذه العلاقة أن العالم لا يطلب من القصيدة أن تفقد لسانها كي يسمعها، وإنما أن تجعل لسانها الخاص قادراً على قول ما هو إنسانيّ عام. فليست العالمية أن تتشابه الأصوات، وإنما أن تستطيع الأصوات المختلفة أن تتعارف؛ وليست الهوية أن تعلق الأبواب في وجه العالم، وإنما أن تدخل العالم وهي تعرف من أين جاءت، وإلى أين تمضي. ومن هنا تأتي هذه الدراسة محاولةً للإنصات إلى لسان الأرض وهو يحاور رياح العالم؛ للكشف عن الكيفية التي جعل بها الشعر المصري الحديث من اللغة جسراً بين الجذور والآفاق، ومن الهوية طاقةً للحوار لا جداراً للعزلة، ومن القصيدة بيتاً صغيراً يسع ذاكرة الوطن واتساع الإنسان.

المحور الأول: اللغة بوصفها ذاكرة الأرض وصوت الهوية

أولاً: اللغة والانتماء — حين يصبح اللسان وطناً

ليست اللغة في التجربة الشعرية مجرد أداة تحمل المعنى، بل هي الوعاء الذي تحفظ فيه الجماعة ذكورها، وتستودع فيه الأرض أسماءها، وتستبقى الروح ملامحها حين تبدل الأزمنة والوجوه. فاللغة، في

أعمق مستوياتها، ليست ما نقول به الأشياء فحسب، وإنما هي الطريقة التي نرى بها الأشياء ونستحضر بها العالم.

وتجد هذه الرؤية سنداً في التصور الاجتماعي للغة عند علي عبد الواحد وافي؛ فاللغة عنده لا تنشأ منعزلة عن الجماعة، وإنما ترتبط بالحياة الاجتماعية وحاجة الإنسان إلى التعاون والتفاهم وتبادل الأفكار، ومن ثم فهي ظاهرة اجتماعية تنبع من الحياة الجمعية.¹ ويؤكد وافي كذلك أن الفرد يتلقى النظام اللغوي من مجتمعه كما يتلقى سائر النظم الاجتماعية، وهو ما يجعل اللغة حاملةً لخبرة الجماعة ومكتسبةً من تاريخها الاجتماعي.² ومن هنا تغدو القصيدة المصرية الحديثة فضاءً تتداخل فيه اللغة بالمكان، والذاكرة بالهوية، والموروث بالحاضر؛ فيصبح لسان الشاعر أشبه بنهر يحمل في مجراه طبقات من التاريخ، كلما مضى نحو البحر لم يفقد منبعه. فالشاعر لا يرث الكلمات منفردة، بل يرث معها شبكة من الدلالات والصور والإيحاءات التي تشكلت في الوعي الجمعي عبر الزمن. ولذلك فإن انتقال اللغة من جيل إلى جيل ليس مجرد انتقال لألفاظ، وإنما هو انتقال لنظام من طرائق التعبير والتسمية والتصور؛ وهي نتيجة تتصل بما يورده وافي في حديثه عن انتقال اللغة من السلف إلى الخلف وما يطرأ عليها من تغير في مسار هذا الانتقال.³ وهذا المعنى يكتسب في الشعر بُعداً جمالياً وروحياً؛ إذ تتحول اللغة من وسيلة للتعبير إلى مسكن للذات. فالشاعر حين يقول «الوطن»، لا يستدعي رقعةً جغرافيةً فحسب، بل يستدعي رائحة التراب، وصوت الأم، وذاكرة الطفولة، وأسماء الشوارع والقرى، ومواسم النيل، ووجوه الذين عبروا في حياته. ومن هذه الزاوية يمكن قراءة العلاقة بين اللغة والهوية لا باعتبارها علاقة تطابق جامد، وإنما باعتبارها علاقة تشكل مستمر؛ فالهوية الثقافية تتكون داخل مسار تاريخي تتداخل فيه اللغة والتاريخ والثقافة والوعي بالذات والآخر. ويكتسب هذا التصور أهمية خاصة في كتاب محمد عابد الجابري مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب، الذي يجعل الهوية قضية تاريخية وثقافية لا مجرد معطى ثابت.⁴ وتظهر الفهرسة المتاحة للكتاب أن مباحثه تمتد إلى قضايا العروبة والإسلام والتراث والتاريخ والآخر والغرب، بما يؤكد اتساع الإطار الفكري الذي عالج فيه الجابري مسألة الهوية. ولذلك كانت العربية في الوجدان المصري الحديث أكثر من نظام لغوي؛ فقد حملت ذاكرةً دينيةً وأدبيةً وحضاريةً واسعة، وتجاورت في التجربة المصرية مع لهجات الحياة اليومية وموروثها الشعبي. ويكشف حافظ إبراهيم هذا الوعي في قصيدته «اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها»، حيث يجعل اللغة ذاتاً إنسانيةً تتكلم وتشتكي وتستنهض قومها:

رَجَعْتُ لِنَفْسِي فَأَكْثَمْتُ حَصَاتِي

و. وَنَادَيْتُ قَوْمِي فَأَحْتَسَبْتُ حَيَاتِي⁵

فباللغة هنا لا تظهر موضوعًا خارجيًا، بل تتحول إلى صوت حي له ذاكرة ووجدان ومصير. وتزداد هذه الصورة عمقًا حين يقول:

أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدُّرُّ كَامِنٌ فَهَلْ سَاءَ لَوْ الْغَوَاصَ عَنْ صَدَفَاتِي⁶

فلاستعارة البحرية لا تقدم اللغة بوصفها ألفاظًا متراكمة، وإنما تجعلها بحرًا تختزن أعماقه الدرر؛ ومن ثم يصبح الغوص في اللغة شبيهًا بالعودة إلى أعماق الذاكرة الحضارية. وقد ثبت نص القصيدة في ديوان حافظ إبراهيم، ص 253-255 في الطبعة المشار إليها في المصدر، وهو توثيق أدق من الاكتفاء بالمواقع الشعرية الإلكترونية.

وتتصل صورة البحر كذلك بما تقوله القصيدة نفسها عن قدرة العربية على استيعاب المستجدات:

فَكَيْفَ أَضِيقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ وَتَنْسِيقِ أَسْمَاءٍ لِمُخْتَرَعَاتٍ⁷

وهنا تنتقل القصيدة من الدفاع عن الماضي إلى الدفاع عن قابلية اللغة للتجدد؛ فحيوية اللغة لا تعني جمودها على صورتها القديمة، وإنما قدرتها على تسمية الأشياء الجديدة من داخل بنيتها وطاقاتها الاشتقاقية والتعبيرية.

ومن منظور اجتماعي لغوي، يتأكد هذا المعنى في حديث وافي عن اختلاف اللهجات داخل المجتمع الواحد باختلاف الطبقات والفئات، وهو ما يبرهن على أن اللغة ليست بنية ساكنة، بل نظام حي يتفاعل مع المجتمع وطبقاته وبيئاته.⁸ ومن ثم فإن التعدد داخل اللغة لا يعني بالضرورة فقدان الهوية، بل قد يكون أحد مظاهر حيويتها.

ومن هنا يمكن القول إن اللغة في القصيدة المصرية تصبح وطنًا رمزيًا؛ وطنًا لا تحده الحدود السياسية، ولا تستطيع رياح العولمة اقتلاعه ما دام حيًا في الوجدان. فالهوية لا تُصان بعزل اللغة عن التحول، وإنما بقدرتها على أن تتغير دون أن تفقد ذاكرتها.

ثانيًا: الأرض في القصيدة — المكان حين يتكلم

إذا كانت اللغة ذاكرة الإنسان، فإن المكان أحد أعمق خزائن هذه الذاكرة. والمكان في الشعر المصري لا يظهر عادةً باعتباره خلفية محايدة للأحداث، بل يتحول إلى شخصية شعرية لها حضورها وصوتها ورمزها.

ولعل النبل أكثر الرموز رسوخًا في المخيلة الشعرية المصرية؛ فهو ليس نهرًا يجري في الجغرافيا فقط، وإنما زمن يجري في الذاكرة.

ويظهر هذا التداخل بين المكان والتاريخ بوضوح في شعر أحمد شوقي، ولا سيما في قصيدته «يا راكب الريح حي النيل والهرما»، التي يقرن فيها النيل بالهرم وسيناء والحرم، فيتحول المكان المصري من مجرد جغرافيا إلى فضاء تاريخي وحضاري وروحي:

يَا رَاكِبَ الرِّيحِ حَيِّ النِّيلِ وَالْهَرَمَا وَعَظِمِ السَّفْحِ مِنْ سِينَاءَ وَالْحَرَمَا⁹

ثم يقول:

وَقَفْ عَلَى أَثَرِ مَرِّ الزَّمَانِ بِهِ فَكَانَ أَثْبَتَ مِنْ أَطْوَادِهِ قِمَمًا¹⁰

واللافت هنا أن «الأثر» لا يؤدي وظيفة وصفية فحسب، بل يتحول إلى مستودع للزمن؛ فالوقوف على المكان هو وقوف على طبقات التاريخ التي مرت به. وهذا بالضبط ما يجعل المكان في الخطاب الشعري حاملاً للهوية.

ولا يقف شوقي عند استدعاء المكان بوصفه أثرًا تاريخيًا، بل يربطه بالذاكرة الدينية والحضارية حين يقول:

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي حَمَلَتْ مُوسَى رَضِيْعًا وَعِيسَى الطُّهْرَ مُنْقَطِمًا¹¹

فالأرض هنا لا تُرى بالعين وحدها، بل تُقرأ في ضوء ما اختزنته من أحداث ورموز وشخصيات. وهكذا يصبح المكان نصًا سابقًا على القصيدة، ويأتي الشاعر ليعيد قراءته باللغة.

ومن هذا المنظور يمكن فهم العلاقة بين «لسان الأرض» و«لغة القصيدة»: فالأرض لا تتكلم بلسانها الطبيعي، وإنما يستنطقها الشاعر باللغة. وكلما كانت اللغة أكثر التصاقًا بذاكرة المكان، استطاعت القصيدة أن تحمل شيئًا من روحه.

إن الشاعر حين يستدعي المكان لا يستدعي حجارته، بل يستدعي روحه؛ ولهذا يمكن أن يتحول المكان من جغرافيا إلى رمز، ومن رمز إلى ذاكرة، ومن ذاكرة إلى هوية.

وهنا تتجاوز القصيدة المصرية حدود الوصف المكاني إلى ما يمكن تسميته التجسيد الشعري للهوية المكانية؛ فالنيل ليس ماءً فحسب، والهرم ليس حجرًا فحسب، والقرية ليست مساحةً سكانيةً فحسب، وإنما كل منها علامة ثقافية تستدعي شبكة من الذكريات والمعاني.

ثالثًا: اللغة الشعرية بين الفصحى والموروث الشعبي

لا تتشكل الهوية الشعرية المصرية من الفصحى وحدها، ولا من اللغة الشعبية وحدها، وإنما من تفاعل حي بين مستويين لغويين يعكسان طبقات التجربة المصرية.

فالفصحى تحمل عمق التراث العربي والإسلامي وذاكرة الشعر القديم، بينما تحمل اللغة الشعبية نبض الحياة اليومية وأمثال الناس وتعبيراتهم وصورهم المتوارثة.

ومن الناحية اللغوية الاجتماعية، يتيح هذا التعدد فهم اللغة بوصفها ظاهرة مرتبطة بالبيئة الاجتماعية؛ إذ يبين وافي أن اللغة الواحدة يمكن أن تتفرع داخل المجتمع إلى لهجات تختلف باختلاف الطبقات والفئات.¹² ومن ثم فإن التعدد اللهجي ليس خروجاً عن النظام الاجتماعي للغة، وإنما هو أحد مظاهر تفاعل اللغة مع البيئة الاجتماعية.

ولهذا فإن دخول المفردة الشعبية إلى القصيدة لا يعني بالضرورة هدم الفصحى، بل قد يكون وسيلة لإدخال رائحة المكان وصوت الجماعة إلى النسيج الشعري.

وهذه الثنائية تمنح الشعر المصري خصوصيته؛ إذ يستطيع الشاعر أن يستفيد من فصاحة العربية دون أن يفقد حرارة البيئة التي ينتمي إليها.

إن الهوية هنا لا تُبنى بالقطيعة بين الفصحى والشعبي، وإنما بالحوار بينهما؛ فالفصحى تمنح النص عمقه التاريخي، والموروث الشعبي يمنحه حرارة الحياة.

وهذا يلتقي مع تصور وافي للغة باعتبارها نظاماً يكتسبه الفرد من الجماعة ويتفاعل مع حياتها الاجتماعية، لا مجرد مجموعة من القواعد المعزولة عن المجتمع.¹³ وقد عبّر حافظ إبراهيم عن قدرة العربية على استيعاب الجديد دون فقدان أصالتها حين يقول:

فَكَيْفَ أَصِيقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ وَتَنْسِيْقُ أَسْمَاءٍ لِمُخْتَرَعَاتٍ¹⁴

ومن ثم فإن القضية ليست في المحافظة على اللغة عبر تجميدها، بل في المحافظة عليها عبر إبقائها قادرةً على إنتاج المعنى.

وهذه الفكرة مهمة في سياق العولمة؛ لأن بقاء اللغة لا يكون بتحنيطها، وإنما بقدرتها على تسمية العالم الجديد بلغتها الخاصة. فاللغة التي تعجز عن تسمية الجديد تضطر إلى استعارة أسماء الآخرين، أما اللغة الحية فتستوعب الجديد وتعيد إدخاله في نظامها الدلالي والثقافي.

ومن هنا تتضح إحدى أهم خصائص الهوية الحية: أنها تحفظ جذورها وهي تتعلم أسماء الأشياء الجديدة. تكشف القراءة أن اللغة في الخطاب الشعري المصري الحديث تؤدي وظيفة تتجاوز التعبير إلى حفظ الذاكرة وصيانة الانتماء وإعادة تشكيل الهوية. فاللغة، من منظورها الاجتماعي، تنشأ في الجماعة وتنتقل عبر الأجيال وتتغير بتغير البيئات والفئات؛ ولذلك فهي ليست وعاءً محايداً، بل سجل حي للحياة الاجتماعية والثقافية.¹⁵

كما أن المكان — وفي مقدمته النيل والهرم والمدينة والقرية والصحراء — يتحول من جغرافيا إلى ذاكرة ورمز، كما يكشف نموذج أحمد شوقي الذي يجعل المكان المصري متصلاً بالتاريخ والحضارة والذاكرة الدينية.¹⁶

أما التفاعل بين الفصحى والموروث الشعبي، فلا ينبغي قراءته بوصفه صراعاً بين مستويين لغويين، وإنما بوصفه حواراً بين ذاكرة التراث ونبض الحياة.

وهكذا يتأكد أن الشاعر لا يسكن الأرض وحدها؛ إنما تسكن الأرض لغته. وكلما نطقت القصيدة بلسان المكان، استيقظت فيها ذاكرة الهوية؛ وكلما انفتحت اللغة على العالم، ازدادت حاجتها إلى جذور تمنحها القدرة على ألا تصبح صدئ لغيرها. فالشجرة التي لا جذور لها لا تحميها كثرة الأغصان، واللغة التي تنفصل عن ذاكرتها قد تكثر فيها الأصوات، لكنها تفقد صوتها.

الخوَر الثاني: العولمة ورياح التحول — القصيدة أمام العالم

إذا كانت اللغة ذاكرة الأرض، فإن العولمة هي الريح التي تهب على هذه الذاكرة من آفاق بعيدة، حاملة معها أنماطاً جديدة من التفكير والصورة والدوق والعيش. وفي هذه المنطقة المتحركة يقف الشاعر المصري الحديث أمام سؤال يتجاوز حدود الفن إلى جوهر الوجود: كيف يحافظ الإنسان على صوته حين يصبح العالم كله صوتاً واحداً متداخلاً؟

فالعولمة لم تُسقط الحدود الجغرافية فحسب، بل أعادت تشكيل الحدود الثقافية كذلك؛ إذ أصبح النص الشعري يتحرك في فضاء مفتوح تتقاطع فيه اللغات والصور والرموز والنماذج الجمالية. ولم يعد الشاعر يعيش داخل ثقافته وحدها، بل صار يتلقى العالم عبر الشاشة والكتاب والصورة والترجمة ووسائل الاتصال الحديثة.

ومن هنا غدت القصيدة المصرية الحديثة ساحة للتفاوض بين الذات والآخر، والجذر والأفق،

والذاكرة والمستقبل.

أولاً: العولمة وتحول مفهوم الهوية

أحدثت العولمة تحولاً عميقاً في مفهوم الهوية؛ فلم تعد الهوية الحديثة جزيرة مغلقة، وإنما أصبحت فضاءً تتفاعل فيه عناصر متعددة من المحلي والعالمي. وهذا التحول لا يعني بالضرورة موت الخصوصية، وإنما يضعها أمام امتحان جديد: هل تستطيع أن تفتح دون أن تفقد ملامحها؟

وقد نبه القرآن الكريم إلى أن الاختلاف بين البشر ليس عارضاً ينبغي محوه، بل سنة من سنن التعارف الإنساني: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ﴾¹⁷

فالتعارف لا يعني الذوبان، كما أنَّ الخصوصية لا تعني الانغلاق. وبين هذين الطرفين تتشكل الهوية بوصفها حواراً حياً مع الآخر.

ومن هنا يمكن النظر إلى العولمة باعتبارها اختباراً لقدرة الثقافة على أن تدخل العالم وهي محتفظة بصوتها. فالقصيدة التي تستقبل العالم دون وعيٍ بجذورها قد تتحول إلى صدى، أما القصيدة التي تعرف أصلها فإنها تستطيع أن تجعل من انفتاحها قوة للإبداع.

ثانياً: الآخر العالمي في المخيال الشعري المصري

يخضر الآخر في الشعر المصري الحديث بصور متعددة؛ فهو أحياناً صورة الغرب، وأحياناً صورة المدينة الحديثة، وأحياناً صورة التكنولوجيا، وقد يكون رمزاً لعالم جديد يثير في الذات مزيجاً من الدهشة والقلق. ولهذا لا ينبغي قراءة الآخر في الخطاب الشعري بوصفه خصماً دائماً؛ فالآخر قد يكون مرآة ترى الذات فيها صورتها بصورة أكثر وضوحاً.

ومن هنا تتشكل جدلية فنية وفكرية بين الانبهار والمقاومة: انبهار بما يحمله العالم من إمكانات معرفية وجمالية، ومقاومة لما قد يحمله من أنماط استهلاكية أو تصورات تهدد الخصوصية الثقافية. وقد عبر الشعر العربي الحديث في تجارب كثيرة عن هذا القلق الحضاري، إذ لم يعد الصراع بين «شرق» و«غرب» مجرد صراع جغرافي، وإنما أصبح صراعاً داخل الذات نفسها: أي شيء آخذ من العالم؟ وأي شيء أحفظ به لأنه جزء من روحي؟ وهنا تتحول القصيدة إلى مختبر للهوية؛ ففيها يدخل الآخر لا لكي يلغي الذات، بل لكي يدفعها إلى إعادة اكتشاف نفسها.

ثالثاً: اغتراب الهوية في زمن العولمة

غير أنَّ الانفتاح العالمي يحمل وجهاً آخر؛ إذ قد يتحول من حوار إلى استلاب، ومن تواصل إلى ذوبان، حين تفقد الذات قدرتها على التمييز بين ما تحتاؤه وما يُفرض عليها. ومن هنا يظهر الاغتراب بوصفه أحد أبرز تمثيلات الهوية في الشعر الحديث؛ فالإنسان قد يعيش في وطنه جسداً، بينما تشعر روحه بأنها معلقة في فضاء لا وطن له. وهذا الاغتراب لا يكون مكانياً فقط، بل قد يكون لغوياً وثقافياً وروحياً: حين يشعر الشاعر أنَّ مفردات عالمه القديم لم تعد قادرة على تسمية عالمه الجديد، وأنَّ اللغة التي ورثها تتعرض لضغط لغة عالمية مهيمنة.

وهنا تتجلى خطورة العولمة حين تتحول من تعدد ثقافي إلى نموذج واحد يسعى إلى إعادة تشكيل الأذواق والوعي والذاكرة.

وقد تَبَّه مالكُ بن نبي إلى خطورة القابلية للاستلاب الحضاري حين تتحول علاقة الأمة بالآخر إلى علاقة تبعية بدل أن تكون علاقة تفاعل وإبداع.¹⁸

ومن المنظور الشعري، فإنَّ أخطر ما يمكن أن يحدث للقصيدة ليس أن تستخدم مفردةً جديدةً أو صورةً عالمية، وإنما أن تفقد قدرتها على إنتاج المعنى من داخل تجربتها الخاصة. فالقصيدة التي تستعير صوت الآخر قد تبدو حديثة، لكنها تظل بلا روح؛ أما القصيدة التي تحاور الآخر من موقع الوعي بذاتها، فإنها تستطيع أن تجعل من الحوار طريقاً إلى التجدد.

رابعاً: العولمة بوصفها تحدياً وإمكاناً

ومع ذلك، لا تنظر الدراسة إلى العولمة بوصفها شراً مطلقاً؛ فالعولمة قد تكون أيضاً نافذةً واسعةً تخرج منها القصيدة المحلية إلى فضاء الإنسانية.

لقد أصبح الشاعر قادراً على الوصول إلى قارئ بعيد لم يكن ممكناً الوصول إليه في الأزمنة السابقة، كما أصبحت الترجمة ووسائل الاتصال الحديثة جسوراً بين التجارب الشعرية المختلفة. وهنا يتبدل السؤال من: كيف نحمي هويتنا من العالم؟ إلى سؤال أعمق: كيف ندخل العالم بهويتنا؟ وهذا هو التحدي الحقيقي أمام القصيدة المصرية: ألا تكون محليةً منغلقةً، ولا عالميةً بلا جذور، وإنما أن تصبح محلية الروح، إنسانية الأفق.

فالشاعر الذي يكتب عن النيل يستطيع أن يتحدث عن الإنسان، والذي يكتب عن قريته يستطيع أن يلامس سؤال المنفى، والذي يستدعي تاريخ مصر يستطيع أن يفتح نافذةً على الذاكرة الإنسانية كلها. ومن هنا يمكن استحضار قول المتنبي:

وَمَا الْحَيْلُ إِلَّا كَالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنٍ مَنْ لَا يُجَرِّبُ¹⁹

فليس كثرة دليل الغنى، كما أنَّ كثرة الأصوات العالمية حول القصيدة لا تمنحها بالضرورة هويتها. إنما القيمة في الصوت الذي يعرف موقعه وسط الأصوات.

ومن هذا المنظور تصبح العولمة امتحاناً لاختبار عمق الجذور؛ فالريخ القوي لا تكشف ضعف الشجرة فحسب، بل تكشف كذلك مدى رسوخ جذورها.

تكشف هذه القراءة أنَّ العولمة أحدثت تحولاً جوهرياً في علاقة الشعر المصري بالهوية والآخر، وأنها جعلت القصيدة أمام فضاء جديد تتداخل فيه الثقافات واللغات والصور والنماذج الجمالية.

غير أنَّ العولمة لا تستلزم بالضرورة ذوبان الهوية؛ إذ تستطيع القصيدة أن تجعل من الانفتاح وسيلة لتجديد الذات وتوسيع حضورها. فالهوية الحية لا تخشى الريح، لأنها لا تستمد قوتها من انغلاقها، وإنما من عمق جذورها.

ومن ثمَّ فإنَّ الشعر المصري الحديث يقف في المسافة الخالقة بين الجذر والأفق؛ يحمل ذاكرة الأرض وهو يصغي إلى رياح العالم، ويبحث عن صيغة لا يكون فيها الانفتاح اقتلاعاً، ولا الأصالة انغلاقاً. فالرياح العالمية لا تقتلع الشجرة بالضرورة؛ قد تكشف فقط عمق جذورها.

نعم، وسأحافظ هنا على الإيجاز النسبي حتى يبقى البحث كله في حدود 17-20 صفحة، مع جعل هذا المحور أكثر كثافة فكرية من كثرة الشواهد. وبما أن الموضوع أدبي نقدي، فسأستخدم القرآن والشعر والمراجع الفكرية واللغوية حيث تخدم التحليل، دون إدخال أحاديث لا تتصل مباشرة بقضية الهوية والعولمة.

المحور الثالث: القصيدة المصرية بين الجذور والآفاق

إذا كانت العولمة قد دفعت القصيدة المصرية إلى فضاء العالم، فإنَّ سؤالها الأعمق ظلَّ معلّقاً في أرض الذاكرة: من أين تأتي القصيدة حين تتعدّد الجهات؟ وإلى أيّ جذور تعود حين تتكاثر الرياح؟ إنَّ الشعر الذي يفقد ذاكرته يفقد إحدى أهمّ قوى وجوده؛ لأنَّ التراث ليس مقبرةً للماضي، وإنما هو مخزون حيٌّ يمكن أن يعيد الشاعر تشكيله كلما احتاج الحاضر إلى معنى جديد. ولذلك لا يأتي التراث في القصيدة المصرية الحديثة بوصفه زينةً لفظية، وإنما بوصفه طاقةً رمزيةً تستدعي الماضي لتضيء الحاضر.

أولاً: استدعاء التراث في مواجهة النسيان

يمثل التراث في الخطاب الشعري المصري إحدى أهمّ وسائل مقاومة النسيان الثقافي. فالشاعر يستدعي التاريخ والشخصيات والرموز والأساطير لا لكي يهرب من واقعه، وإنما لكي يمنح هذا الواقع عمقاً زمنياً وروحياً.

ومن هنا يمكن فهم حضور الشخصيات التاريخية والرموز الدينية والحضارية في الشعر الحديث؛ فهي لا تعود إلى النصّ بالصورة التي كانت عليها في الماضي، وإنما تدخل في حوارٍ جديدٍ مع الحاضر. والقرآن الكريم نفسه يجعل في استحضار التاريخ وظيفة تتجاوز الحكاية إلى الاعتبار واستنارة الحاضر؛ يقول تعالى:

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾²⁰

فالقصّة ليست مجرد استعادة للماضي، وإنما طريقٌ إلى التفكير في الحاضر. ومن هذه الزاوية يتحول التراث الشعري والتاريخي إلى ذاكرة فاعلة، لا إلى أثرٍ ساكن.

ولهذا فإن استدعاء التراث في القصيدة الحديثة ينبغي أن يُقرأ باعتباره فعل إعادة اكتشاف؛ فالشاعر لا يسأل فقط: ماذا قال الأسلاف؟ بل يسأل كذلك: ماذا يستطيع الماضي أن يقول لنا اليوم؟
ثانيًا: النيل بوصفه رمزًا للهوية والاستمرار

إذا كان للهوية المصرية قلب شعري نابض، فإن النيل واحد من أكثر رموز ذلك القلب رسوخًا. فالنيل في المخيلة المصرية ليس مجرى ماء فحسب، وإنما هو ذاكرة المكان التي تتحرك؛ يحمل الماضي في مائه، ويعبر الحاضر دون أن يفقد صلته بالمنبع. ولهذا استقر النيل في الشعر المصري بوصفه رمزًا للحياة والخصوبة والاستمرار. وقد جعله أحمد شوقي جزءًا من المشهد الحضاري لمصر في قوله:

يا راكب الريح حيّ النيل والهَرَمَا وَعَظِيم السَّفْح من سيناء والحرَمَا²¹

فالنيل هنا لا يظهر منفردًا؛ إنه يدخل في شبكة رمزية تجمع مصر بالنيل والهرم وسيناء والحرم، أي إن المكان المصري يفتتح على دائرة حضارية وروحية أوسع. وتزداد دلالة المكان حين يقول شوقي:

وَقَفْ عَلَى أَثَرِ مَرِّ الزَّمَانِ بِهِ فَكَانَ أَثْبَتَ مِنْ أَطْوَادِهِ قِمَمًا²²

إن «الأثر» هنا ليس حجرًا من الماضي، بل علامة على استمرار الذاكرة. فالمكان يظل قادرًا على مقاومة الزمن؛ ولذلك يصبح استدعاء المكان في القصيدة استدعاءً للهوية نفسها.

ومن هذه الزاوية يمكن القول إن النيل يؤدي وظيفة رمزية مزدوجة: فهو ماء يتحرك، وذاكرة لا تتوقف؛ ومن ثم يجمع في صورته بين الاستمرار والتحول، وهما جوهر إشكالية الهوية في زمن العولمة.
ثالثًا: الأسطورة والرمز وإعادة بناء الهوية

حين تضيق اللغة المباشرة عن حمل الأسئلة الكبرى، يلجأ الشعر إلى الرمز. والرمز ليس غموضًا مقصودًا لذاته، بل طريقة لفتح المعنى على طبقات متعددة. ولهذا تستدعي القصيدة المصرية الحديثة الرموز التاريخية والدينية والشعبية، فتمنحها دلالات جديدة تتجاوز سياقها الأول.

وقد يتحول الرمز الديني إلى علامة على الخلاص، أو يتحول الرمز التاريخي إلى مرآة للحاضر، أو يصبح الرمز الشعبي صوتًا للذاكرة الجمعية.

وهذا ما يجعل الرمز إحدى أهم الأدوات التي يستطيع بها الشاعر أن يحاور العولمة دون أن يفقد خصوصيته؛ لأن الرمز المحلي حين يُصاغ فنيًا يستطيع أن يتجاوز حدود المكان.

فالفرعون، والنيل، والنخيل، والصحراء، والمدينة، والقرية، والوي الشعي، والشخصية التاريخية، ليست مجرد عناصر في المشهد الشعري؛ بل يمكن أن تصبح مفاتيح لذاكرة ثقافية كاملة.

وفي هذا السياق يكتسب استدعاء التراث الديني أهمية خاصة؛ فالقرآن الكريم جعل في اختلاف الليل والنهار وتعاقب الأزمنة مجالاً للتأمل والاعتبار:

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾²³ ومن منظور رمزي يمكن أن نرى في هذه الصورة القرآنية معنى قريباً من حركة الثقافة ذاتها: موت وتجدد، سكون وحركة، جذور ورياح.

وهكذا لا يكون التراث في القصيدة حجراً يعوق الحركة، بل جذراً يمنح الحركة معناها.

رابعاً: من استعادة التراث إلى إعادة إنتاجه

وهنا تبلغ العلاقة بين التراث والحداثة ذروتها؛ فالشاعر الحديث لا يستعيد التراث ليهرب من الحاضر، وإنما يستدعيه لكي يمنح الحاضر معنى.

فالتراث الذي يُنقل كما هو يتحول إلى تكرار، أما التراث الذي يدخل في التجربة الشعرية الجديدة فيتحول إلى إبداع متجدد.

ولهذا فإن أصالة القصيدة لا تُقاسُ بعدد الرموز القديمة التي تستعملها، وإنما بقدرتها على تحويل هذه الرموز إلى لغة جديدة تعبر عن أسئلة الإنسان المعاصر.

إن الشاعر لا يعود إلى الماضي لكي يسكنه، بل لكي يستخرج منه نوراً يضيء الحاضر.

وهذه هي المسافة الدقيقة بين التراث والتقليد: التقليد يكرر الصورة، أما الإبداع فيعيد خلقها.

ومن هنا يمكن فهم القصيدة المصرية الحديثة بوصفها منطقة لقاء بين زمنين: زمن الذاكرة وزمن الحاضر؛ بين «ما كان» و«ما يمكن أن يكون».

يتضح أن التراث في القصيدة المصرية الحديثة ليس عبئاً على الحداثة، بل يمكن أن يكون مصدراً من مصادر تجديدها. فاستدعاء التاريخ والدين والأسطورة والرموز الحضارية يمنح القصيدة عمقاً ثقافياً، بينما يحول النيل والمكان الذاكرة الجغرافية إلى ذاكرة شعرية.

ومن ثم فإن العلاقة بين الجدور والآفاق ليست علاقة تضاد، بل علاقة حياة؛ فالجذر لا يمنع الشجرة من الصعود، وإنما يمنحها القدرة على الصعود.

وهنا تتجلى إحدى أهم نتائج هذا المحور: إن الشاعر المصري لا يحتاج إلى أن يختار بين التراث والعالم، بل يستطيع أن يجعل من التراث جسراً إلى العالم.

فالشاعر الحديث لا يستعيد التراث ليعود إلى الأمس، وإنما يعود إلى الأمس لكي يمنح اليوم قدرةً جديدةً على أن يرى نفسه.

نعم، وهذا المحور يحتاج إلى توثيق أدبي وثقافي أكثر من التوثيق الحديثي؛ لأن موضوعه هو التراث والرمز والنيل والذاكرة. وسأجعله موجزًا نسبيًا حتى لا يستهلك من حجم المقالة، مع الاختصار على شواهد موثقة يمكن الدفاع عنها في التحكيم.

المحور الرابع: جماليات اللغة في مواجهة العولمة

إذا كانت العولمة قد فتحت أمام القصيدة المصرية نوافذ واسعة على العالم، فإنها في الوقت نفسه وضعتها أمام امتحانٍ جماليٍّ دقيق: كيف تستقبل القصيدة رياح العالم دون أن تفقد عطر الأرض؟ وكيف تتجدد لغتها دون أن تنقطع عن ذاكرتها؟

إن اللغة الشعرية ليست وعاءً محايدًا للأفكار، بل هي الذاكرة الخفية للجماعة، وفي نبرتها وإيقاعها وصورها تختزن ملامح المكان وروح الإنسان. ولذلك فإن دراسة الشعر المصري في زمن العولمة لا تستقيم بالنظر إلى موضوعاته فحسب، بل تقتضي الكشف عن التحولات التي أصابت المعجم والصورة والرمز والإيقاع، وهي المستويات التي يتجلى فيها الصراع الخفي بين الجذور والآفاق.

أولاً: المعجم الشعري بين المحلي والعالمي

المعجم الشعري هو أول عتبة تكشف علاقة القصيدة بعصرها؛ فالكلمة في الشعر لا تؤدي معناها المعجمي المجرد، وإنما تحمل معها رصيداً من الذاكرة والثقافة والانفعال. ولذلك فإن مفردات النيل والأرض والقرية والنخيل والشارع والبيت تستحضر عالماً مصرياً كثيفاً، بينما تستدعي مفردات التكنولوجيا والمدينة والشبكات والسرعة فضاءً عالمياً جديداً.

وقد جعل ابن جني اللغة نظاماً وثيق الصلة بحياة الجماعة وتداولها، وعرفها بأنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم».²⁴ ومن هذا التعريف يمكن النظر إلى المعجم الشعري باعتباره مرآةً للتحولات الحضارية التي يعيشها المجتمع.

غير أن الشاعر الحديث لا يقف أمام المفردة الوافدة موقفَ الرفض المطلق، كما لا يستسلم لها استسلاماً كاملاً؛ وإنما يعيد تشكيلها داخل نسيجه الشعري. وهنا تتحول العولمة من قوة تفرض قاموسها إلى مادة فنية يمكن للشاعر أن يطوّعها ويمنحها خصوصيةً محلية.

ومن ثم فإن حضور المفردة العالمية لا يعني بالضرورة اغتراب اللغة؛ فالاغتراب يبدأ حين تفقد المفردة صلتها بوجودان الشاعر، أما حين تدخل في بنية النص وتكتسب دلالتها الجديدة، فإنها تصبح جزءاً من حركة اللغة نفسها.

وقد نبّه عبد القاهر الجرجاني إلى أن قيمة الألفاظ لا تُفهم منفصلةً عن طريقة نظمها وتأليفها، إذ يقول: «ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها»²⁵ وبذلك يصبح السؤال الحقيقي ليس: هل الكلمة محلية أم عالمية؟ وإنما: كيف صنعت القصيدة منها معنى؟

وهنا تكمن قدرة الشعر المصري على تحويل الوافد إلى محلي، والعالمي إلى شخصي، والغريب إلى جزء من نسيج الذاكرة.

ثانياً: الصورة الشعرية بين الذاكرة والحدثة

إذا كان المعجم جسد اللغة، فإن الصورة الشعرية روحها المتخيلة. فالشاعر لا ينقل الواقع كما تراه العين، وإنما يعيدُ خلقه وفق رؤيته الداخلية.

وقد جعل جابر عصفور الصورة الفنية في قلب التجربة الشعرية، وربط دراستها بالبنية الجمالية والفكرية التي تتشكل داخل النص؛ فالصورة ليست زخرفاً بلاغياً زائداً، وإنما وسيلةً لإعادة بناء التجربة وإنتاج الدلالة.²⁶ ومن هنا تظهر خصوصية الصورة الشعرية المصرية في زمن العولمة؛ إذ تتجاوز صورة النيل والطين والنخيل والقرية مع صورة المدينة والشاشة والآلة والفضاء الرقمي. ويولد من هذا التجاور عالمٌ شعريّ جديد، لا هو ماضٍ خالص ولا حاضرٌ منفصل عن جذوره.

وقد عبّر أحمد شوقي عن المكان المصري في صورة تجمع بين الجغرافيا والتاريخ والذاكرة حين قال:

يا رَاكِبَ الرِّيحِ حَيَّ النِّيلِ وَالْهَرَمِ وَعَظَمِ السَّفْحِ مِنْ سِينَاءَ وَالْحَرَمِ²⁷

فالنيل والهرم وسيناء والحرَم لا تظهر هنا بوصفها أسماءً أماكن متجاوزة فحسب، بل تتحول إلى شبكةٍ من الرموز التي تجعل المكان المصري جزءاً من فضاء حضاري أوسع.

وتكشف هذه الصورة عن خاصية أساسية في الشعر المصري: أن المحلي يمكن أن يكون بوابةً إلى الكوني. فحين يعبر الشاعر عن النيل، لا يعبر عن نهرٍ مصري فحسب، بل يستطيع أن يستدعي من خلاله معاني الحياة والجريان والذاكرة والزمن.

وهنا تلتقي الصورة الشعرية مع التصور القرآني للماء والحياة:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾²⁸

ولا يعني ذلك مساواة الصورة الشعرية بالدلالة القرآنية، وإنما الكشف عن الطاقة الرمزية التي تجعل العناصر الكونية قابلةً للانتقال من المحسوس إلى المعنى.

ثالثاً: الرمز والإيحاء — حين تتجاوز الكلمة حدودها

تزداد أهمية الرمز في الشعر الحديث كلما أصبحت التجربة أكثر تعقيداً وأصبح التعبير المباشر عاجزاً عن احتواء مستوياتها المتعددة.

والرمز في جوهره ليس غموضاً، بل تكثيفٌ للمعنى؛ إذ تستطيع كلمة واحدة أن تفتح في النص فضاءً من الدلالات لا تستوعبه العبارة المباشرة.

وقد ارتبط الرمز في الشعر الحديث بعناصر الطبيعة والمكان والذاكرة؛ فلما قد يدل على التجدد، والأرض على الانتماء، والريح على التحول، والنور على الكشف، والطريق على الرحلة الداخلية. وهذه العناصر نفسها تمتلك حضوراً قوياً في المخيال الصوفي؛ حيث يتحول المحسوس إلى علامة على معنى باطني. فالنور مثلاً لا يبقى مجرد ظاهرة بصرية، بل يمكن أن يتحول إلى رمز للكشف والهداية: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾²⁹.

ومثل ذلك الطريق؛ فقد يتحول في الشعر إلى رمز للبحث عن الذات، والبحر إلى رمز للغيب، والماء إلى صورة للحياة والتطهر والتجدد.

وهنا تتصل جماليات الشعر المصري الحديث بجماليات الرؤية الرمزية؛ فالشاعر لا يقول الأشياء فقط، وإنما يجعل الأشياء تقول ما وراءها.

وهذه إحدى طاقات الشعر على مقاومة العولمة؛ لأن الرمز المحلي يستطيع أن يتحول إلى لغة إنسانية مشتركة. فالنيل، مثلاً، يبدأ بوصفه نهرًا مصريًا، لكنه يستطيع أن يصبح رمزًا للزمن والحياة والذاكرة، وبذلك ينتقل من خصوصية المكان إلى رحابة التجربة الإنسانية.

رابعاً: الإيقاع بين الأصالة والتجديد

أما الإيقاع فهو النبض الذي يمنح اللغة الشعرية حياتها. وقد عرف الشعر العربي منذ بداياته نظاماً موسيقياً بالغ الدقة، أسسه الخليل بن أحمد الفراهيدي في علم العروض، ثم شهد الشعر الحديث تحولات واسعة في مفهوم الموسيقى الشعرية، من البيت العمودي إلى التفعيلة وقصيدة النثر.

غير أن هذا التحول لا يعني موت الموسيقى، بل انتقالها من الإيقاع الخارجي وحده إلى شبكة أوسع من الإيقاع الداخلي، والتكرار، والتوازي، والتنغيم، وتوزيع الجمل، وحركة الأصوات.

وقد بحث إبراهيم أنيس في الموسيقى الشعرية العربية، موضحاً أن الإيقاع ليس مجرد وزن خارجي، وإنما يرتبط كذلك بخصائص الأداء الصوتي والتنغيم وتآلف الأصوات.³⁰ ومن هنا يمكن النظر إلى قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر بوصفهما محاولتين لإعادة اكتشاف الموسيقى من داخل اللغة، لا بوصفهما قطعة مطلقة مع التراث.

فالشكل الشعري في النهاية ليس إطاراً خارجياً، بل هو صورةٌ من صور الوعي. وحين يتغير تصور الإنسان للزمن والمدينة والذات، تتغير معه طرائق بناء القصيدة. ومع ذلك تبقى في العربية موسيقى عميقة لا تستطيع الحداثة أن تلغيها؛ لأنها جزءٌ من طبيعة اللغة ذاتها. ولهذا فإن التجديد الحقيقي لا يقوم على هدم التراث الموسيقي، وإنما على إعادة اكتشاف إمكاناته في صورة جديدة.

تكشف القراءة الجمالية للقصيدة المصرية الحديثة أن مواجهة العولمة لا تتم بالانغلاق، وإنما ببناء لغةٍ قادرة على استقبال الجديد دون فقدان الذات. فالمعجم يستقبل العالم، والصورة تعيد تشكيله، والرمز يمنحه أفقاً إنسانياً، والإيقاع يحفظ للقصيدة نبضها الخاص. ومن هنا فإن العولمة لا ينبغي أن تكون نهايةً للخصوصية، بل يمكن أن تكون اختباراً لقدرة اللغة على اكتشاف ذاتها من جديد.

فكلما اتسعت القصيدة للعالم، ازدادت حاجتها إلى جذورٍ أعمق؛ وكلما كثرت في لغتها أصوات العالم، احتاجت إلى أن تُصغي أكثر إلى صوتها الداخلي. وهكذا لا تكون القصيدة المصرية شجرةً تحشى الريح، بل شجرةً تعرف أن قوة أغصانها لا تنفصل عن عمق جذورها.

رابعاً: الشاعر المصري بوصفه وسيطاً بين عالمين

الشاعر هنا ليس حارساً للماضي فقط، ولا تابعاً للعالم الجديد، وإنما كائنٌ يقف على العتبة؛ يحمل ذاكرة الأرض وينظر إلى الأفق.

إن الهوية الشعرية الحية ليست جداراً يحجب العالم، ولا نافذةً تبتلعها الرياح؛ إنها شجرةٌ تضرب جذورها في الأرض، وترسل أغصانها نحو السماء.

الخوارج الخامس: من أزمة الهوية إلى هوية شعرية جديدة

بعد أن كشفت المحاور السابقة عن حضور الأرض في اللغة، وعن اضطراب الهوية تحت رياح العولمة، وعن محاولة القصيدة استعادة التراث وإعادة تشكيله جمالياً، يبرز السؤال الأعمق: هل تبقى الهوية الشعرية أسيرة ثنائية الانغلاق والانفتاح، أم تستطيع أن تنشئ لنفسها أفقاً ثالثاً، تتجاوز فيه الجذور والآفاق؟

إن الهوية في جوهرها ليست كتلة صامتة محفوظة في متحف التاريخ، وإنما هي كائن حي يتشكل باستمرار من الذاكرة والتجربة والحوار. ولذلك فإن أزمة الهوية لا تنشأ من حضور التراث، ولا من الانفتاح على الآخر في ذاته، وإنما تنشأ حين يتحول التراث إلى جمود، أو يتحول الانفتاح إلى استلاب. ومن هنا تقترح القصيدة المصرية الحديثة صيغة أكثر رحابة: هوية تعرف أصلها، لكنها لا تغلق أبوابها؛ وتفتح على العالم، لكنها لا تفقد اسمها.

أولاً: الهوية ليست سجنًا — من المحافظة إلى التجدد

ليس الوفاء للهوية أن تتحول الذاكرة إلى قيد، ولا أن يصبح التراث حائطاً يحجب الحاضر. فالتراث إذا فقد قدرته على الحوار مع الزمن تحول إلى صورة جامدة، أما إذا دخل في حركة الإبداع فإنه يستعيد طاقته الحية. وهنا يمكن استحضار قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾³¹.

فالتنوع الذي تقرره الآية ليس دعوة إلى محو الخصوصيات، وإنما إلى التعارف بينها؛ ومن ثم فإن الهوية لا تتأكد بالغاء الآخر، بل بقدرتها على الدخول معه في علاقة معرفة وحوار. وفي هذا السياق، يذهب محمد عابد الجابري إلى أن التعامل مع التراث لا ينبغي أن يكون علاقة تقديس جامد أو قطيعة عمياء، بل ينبغي أن يقوم على قراءة نقدية تجعل التراث موضوعاً للفهم وإعادة البناء.³² وهذا المبدأ يمكن نقله إلى المجال الشعري؛ فالشاعر لا يستعيد التراث ليكرر صوته، بل ليستخرج منه ما يستطيع أن يثير أسئلة الحاضر.

ومن هنا فإن الشاعر المصري الحديث حين يستدعي التاريخ أو الرمز الديني أو الموروث الشعبي لا يمارس فعلاً استرجاعياً محضاً، وإنما يعيد إنتاج الذاكرة داخل الحاضر. فالتراث الذي لا يتحرك يموت في الذاكرة، أما التراث الذي يدخل القصيدة فيتحول إلى طاقة مستقبلية. وقد أظهرت دراسات الجابري في *التراث والحداثة* أن القضية الأساسية ليست الاختيار بين التراث والحداثة، بل بناء منهج جديد في التعامل مع التراث يسمح بإعادة وصل الماضي بأسئلة الحاضر.³³ وهنا تتجلى حكمة الشعر: لا يحتاج الجذر إلى أن يمنع الشجرة من الصعود؛ بل هو الذي يمنحها القدرة على الصعود.

ثانيًا: الهوية ليست ذوبانًا — مقاومة الاستلاب الثقافي

إذا كان الانغلاق خطرًا على الهوية، فإن الذوبان في الآخر خطرٌ أشد؛ لأن الذات حين تفقد قدرتها على إنتاج المعنى تتحول إلى صدى.

والعولمة، في بعدها الثقافي، لا تعمل فقط من خلال انتقال السلع والمعلومات، وإنما من خلال انتقال الصور والرموز والنماذج والأنماط الثقافية. ولذلك تصبح اللغة والشعر من أهم ميادين اختبار قدرة الثقافة على حماية خصوصيتها دون الانقطاع عن العالم.

وقد تناول عبد الإله بلقزيز العلاقة بين العولمة والهوية الثقافية من زاوية التوتر بين **عولمة الثقافة وثقافة العولمة**، مبينًا أن العولمة تطرح أسئلة عميقة حول استقلال الثقافة وقدرتها على الحفاظ على خصوصيتها في فضاء عالمي متزايد التشابك.³⁴

وهنا لا تصبح مقاومة الاستلاب رفضًا لكل ما يأتي من الخارج، بل تصبح قدرةً على الاختيار والتصفية وإعادة التشكيل.

فالقصيدة التي تستعير صورةً عالميةً ثم تمنحها مناخها المصري لا تفقد هويتها؛ أما القصيدة التي تكرر النموذج الأجنبي دون أن تضيف إليه شيئًا من تجربتها فإنها تتحول إلى ظلٍ للنموذج. ومن ثم فإن الهوية الشعرية لا تُقاس بعدد المفردات التراثية التي يستخدمها الشاعر، وإنما بقدرته على إنتاج صوتٍ خاص.

فالهوية ليست قاموسًا مغلقًا، وإنما هي طريقةٌ في رؤية العالم.

ثالثًا: الهوية بوصفها حوارًا — الذات والآخر، التراث والحداثة

إذا تحررت الهوية من الانغلاق والذوبان، فإنها تتحول إلى فضاءٍ للحوار.

وهنا تتقاطع ثلاثة أزواجٍ كبرى داخل القصيدة المصرية الحديثة:

الذات والآخر،

التراث والحداثة،

المحلي والعالمي.

ولا ينبغي أن يفهم هذا التقابل بوصفه صراعًا نهائيًا؛ فالشاعر يستطيع أن يجعل من التوتر نفسه مصدرًا للإبداع.

فالذات لا تعرف حدودها إلا حين تواجه الآخر، والتراث لا يكتشف إمكاناته إلا حين يُقرأ من أسئلة جديدة، والمحلي لا يبلغ أفقه الإنساني إلا حين يستطيع أن يتجاوز حدود المكان. وهذا ما يجعل الهوية الشعرية أقرب إلى حركةٍ دائمة منها إلى تعريف ثابت.

وقد ناقش الجابري في مشروعه الفكري علاقة التراث بالحداثة باعتبارها مسألة منهج ورؤية قبل أن تكون مجرد اختيار بين ماضي وحاضر؛ ولذلك جاء كتابه *التراث والحداثة* جامعاً لدراسات تتصل بهذه المسألة من زوايا متعددة.

أما أدونيس، فقد جعل جدلية **الثابت والمتحول** محوراً مركزياً في مشروعه النقدي، رابطاً الإبداع بقدرة الثقافة على تجاوز التكرار وإعادة النظر في علاقتها بالموروث.³⁵ ومن هنا يمكن القول إن القصيدة المصرية الحديثة لا تختار بين أن تكون «تراثية» أو «حديثة»، وإنما تحاول أن تكون **حديثة بجذور تراثية، وتراثية بروح حديثة**.

رابعاً: الشاعر المصري وسيط بين عالمين

في زمن العولمة يتغير موقع الشاعر. فلم يعد الشاعر مجرد حافظٍ للماضي، كما لم يعد مجرد مستقبلٍ سلمي للثقافة العالمية؛ بل أصبح **وسيطاً بين عالمين**.

يقف الشاعر على العتبة: وراء أرضٍ مشبعة بالذاكرة، وأمامه عالمٌ سريع التحول. ومن هذه المنطقة المعلقة بين الجذر والريح تتشكل تجربته.

وهنا تكتسب القصيدة وظيفةً تتجاوز التعبير الفردي؛ إذ تصبح وسيلةً لإعادة صياغة العلاقة بين الإنسان ومكانه، وبين ذاكرته والعالم.

فالشاعر المصري يستطيع أن يأخذ من النيل أكثر من صورته الطبيعية، ومن القاهرة أكثر من شوارعها، ومن القرية أكثر من جغرافيتها؛ يستطيع أن يحولها إلى **لغة رمزية للوجود الإنساني**.

وهكذا تتحول مصر في القصيدة من مكانٍ جغرافي إلى ذاكرةٍ روحية، ويصبح المكان المحلي قادراً على مخاطبة الإنسان في كل مكان.

إن الشاعر لا يقف بين الماضي والمستقبل كما يقف الحارس بين باين؛ بل يقف كما يقف السالك بين منزلتين: يحمل أثر الطريق القديم، لكنه يمضي إلى طريقٍ لم يُكتشف بعد.

وهنا تكمن القيمة الصوفية للهوية الشعرية: ليست الهوية عودةً إلى نقطة البداية، بل **عودةً أعمق إلى الذات لكي تنطلق منها إلى العالم**.

خامساً: نحو هوية شعرية جديدة

ومن خلال ما سبق، يمكن تحديد ملامح الهوية الشعرية الجديدة في أربعة أبعاد مترابطة:

أولها: الجذر؛ أي الاحتفاظ بالذاكرة المصرية والعربية وما تحتزنه من لغة وتاريخ ورموز.

وثانيها: الانفتاح؛ أي القدرة على استقبال العالم دون خوفٍ أو عقدةٍ من الآخر.

وثالثها: التحويل الإبداعي؛ فلا يكتفي الشاعر باستدعاء التراث أو استهلاك النموذج العالمي، وإنما يعيد صياغتهما في بنية شعرية جديدة.

ورابعها: البعد الإنساني؛ بحيث يتحول المحلي إلى نافذة على الكوني.

وبذلك تصبح الهوية الشعرية الجديدة هوية حوارية متحركة، لا تتأسس على النفي، وإنما على التفاعل؛ لا على الذوبان، وإنما على التمثل؛ لا على القطيعة، وإنما على إعادة الخلق. وقد لخصت بعض القراءات المعاصرة لجدلية التراث والحداثة هذه الضرورة في أن الحداثة لا تستقيم دون ذاكرة ثقافية قادرة على التفاعل مع التراث بصورة نقدية وواعية.

تكشف القصيدة المصرية الحديثة أن الهوية ليست سؤالاً عن الماضي وحده، بل سؤالاً عن كيفية صناعة المستقبل من داخل الذاكرة.

فهي ليست سجناً يحبس الشاعر في الماضي، وليست ذوباناً يجعله تابعاً للعالم؛ وإنما هي حركة بين الجذر والأفق.

إن الشاعر المصري الحديث لا يحتاج إلى أن يختار بين الأرض والريح؛ فالأرض تمنحه الثبات، والريح تمنحه الحركة، والشعر هو المساحة التي يتحول فيها الثبات إلى سفر، والسفر إلى معنى. إن الهوية الشعرية الحية ليست جداراً يحجب العالم، ولا نافذة تبتلعها الرياح؛ إنها شجرة تضرب جذورها في الأرض، وترسل أغصانها نحو السماء.

المحور السادس: الشعر المصري وسؤال العالمية من الخصوصية إلى الكونية

بعد أن قطعت القصيدة المصرية الحديثة مسارها بين لسان الأرض ورياح العالم، وبين الذاكرة والحداثة، وبين الجذر والأفق، يصل البحث إلى السؤال الأكثر دلالة: كيف تستطيع القصيدة أن تكون مصرية في نبضها، إنسانية في أفقها، وعالمية في قدرتها على العبور؟ فالعالمية في الأدب ليست أن تفقد القصيدة ملامحها المحلية، وإنما أن تبلغ من صدقها في التعبير عن الإنسان مبلغاً يجعل خصوصيتها قادرة على أن تُسمع العالم صوتها. أولاً: هل المحلية تناقض العالمية؟

ليست المحلية نقيضاً للعالمية؛ بل قد تكون الطريق الأقرب إليها. فالعمل الأدبي لا يعبر الحدود لأنه محاط بخصائصه، وإنما لأنه استطاع أن يجعل من الخاص نافذة على المشترك الإنساني.

وقد تنبه غوته إلى هذه الحقيقة حين تحدث عن الأدب العالمي (Weltliteratur)، مؤكداً أن الأدب لا يعيش داخل الحدود القومية وحدها، بل يدخل في حركة تبادل بين الآداب والثقافات.³⁶ ومن ثم فإن الشاعر المصري لا يحتاج إلى أن يتخلى عن النيل أو القاهرة أو القرية أو الذاكرة الشعبية

لكي يخاطب الإنسان في آسيا أو أوروبا أو إفريقيا؛ بل إن قوة هذه العناصر تكمن في قدرتها على حمل تجربة إنسانية تتجاوز حدود المكان.

وهنا يصدق المعنى القرآني في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾³⁷

فالتنوع لا يلغي الوحدة، والاختلاف لا ينفي إمكان التعارف؛ بل إن التعارف نفسه يفترض وجود ذوات متعددة تحمل خصوصياتها ثم تلتقي في فضاء الإنسانية.

ومن هنا يمكن النظر إلى القصيدة المصرية بوصفها صوتاً محلياً يتجه نحو أفق إنساني واسع؛ فحين نتحدث عن الغربة، لا نتحدث عن غربة مصرية فقط، وحين نتأمل الموت لا تؤسس موتاً محلياً، وحين نتحدث عن الحرية فإنها تلامس سؤال الإنسان في كل أرض. وهكذا تتحول الخصوصية من قيد جغرافي إلى طاقة جمالية للعبور.

ثانياً: من المكان المصري إلى الإنسان العالمي

المكان في القصيدة ليس نهاية المعنى، بل بدايته.

فالنيل قد يكون نهرًا مصريًا، لكنه في الشعر يستطيع أن يصبح رمزًا للحياة والاستمرار؛ والقاهرة قد تكون مدينة بعينها، لكنها تستطيع أن تتحول إلى صورة للمدينة الحديثة بما فيها من ازدهار ووحدة وذاكرة؛ والقرية المصرية قد تبدو محدودة الجغرافيا، لكنها تحمل أسئلة الإنسان عن الجذر والانتماء والرحيل.

ومن هنا تتجاوز القصيدة المكان حين تكتشف الإنسان الكامن خلف المكان.

فالفقر، والغربة، والحب، والموت، والحرية، والذاكرة، والوطن ليست موضوعاتٍ مصرية خالصة؛ وإنما هي مفردات في المعجم الإنساني العام. وإذا استطاع الشاعر أن يصوغها من داخل تجربته الخاصة، فإن القصيدة تخرج من حدود الجغرافيا دون أن تفقد جغرافيا الروح.

وقد أكد إدوارد سعيد أن الهوية الثقافية لا ينبغي أن تُفهم بوصفها جوهرًا مغلقًا، وإنما بوصفها بناءً متحركًا يتشكل عبر التاريخ والاتصال والاختلاف.³⁸ ومن ثم فإن الثقافة التي تعرف نفسها لا تخشى العالم، والشاعر الذي يمتلك صوته يستطيع أن يدخل الحوار العالمي دون أن يتحول إلى نسخة من الآخر.

وهنا يتجلى البعد الصوتي في التجربة الشعرية: كلما نزل الشاعر إلى أعماق ذاته، اقترب من الإنسان في كل مكان؛ لأن أعماق الإنسان، على اختلاف اللغات والأوطان، تتلاقى في أسئلة واحدة: من أين جئت؟ وإلى أين أمضي؟ وما معنى أن أكون إنساناً؟

ثالثاً: مصر في القصيدة بوصفها رمزاً

لا تقف مصر في الشعر عند حدود الاسم الجغرافي؛ فقد تتحول إلى رمز مركب للذاكرة والحضارة والخصوبة والموت والبعث والبحث عن المعنى.

فالنيل، مثلاً، لا يعود مجرد مجرى مائي، وإنما يمكن أن يتحول إلى خيط رمزي يصل الأجيال بعضها ببعض؛ والأرض لا تعود تراثاً، وإنما تصبح ذاكرة تحفظ آثار الذين مروا عليها؛ والمدينة لا تعود أبنية وشوارع، وإنما تصبح مرآة لتحولات الإنسان.

ومن هنا يمكن أن نقرأ المكان المصري باعتباره علامة شعرية لا مجرد خلفية للحدث.

وهذا يلتقي مع ما قرره غاستون باشلار في حديثه عن شعرية المكان؛ إذ يرى أن المكان الحميمي لا يُحتزل في أبعاده الهندسية، بل يسكن الذاكرة والخيال ويصبح جزءاً من تكوين الذات.³⁹ وبهذا المعنى تستطيع مصر في القصيدة أن تتحول من «مكان» إلى «معنى»، ومن جغرافيا إلى ذاكرة، ومن ذاكرة إلى سؤال إنساني.

فمصر التي تظهر في القصيدة قد تكون مصر التاريخ، ومصر النيل، ومصر الفقر والمدينة، ومصر الحلم، لكنها في اللحظة التي تكتمل فيها تجربتها الفنية تصبح مرآة للإنسان الذي يبحث عن وطن ومعنى وذاكرة.

وهنا نتحقق إحدى أهم وظائف الأدب: أن يجعل المكان الخاص قادراً على أن يقول شيئاً عن العالم.

رابعاً: نحو شعر يجمع بين الجذور والأفق

تبلغ الدراسة في هذا الموضوع ذروتها؛ إذ يتبين أن الطريق إلى العالمية لا يمر عبر التخلي عن الهوية، وإنما عبر تعميقها وإعادة صياغتها في لغة قابلة للحوار.

فالشاعر الذي يكتب عن النيل يستطيع أن يخاطب العالم إذا جعل النيل أكثر من نهر؛ وجعله رمزاً للزمن والحياة والذاكرة. والشاعر الذي يكتب عن القاهرة يستطيع أن يتجاوز القاهرة إذا جعل المدينة صورة للإنسان الحديث في غربته وصراعه. والشاعر الذي يستدعي التراث يستطيع أن يصل إلى القارئ العالمي إذا لم يحوله إلى متحف، بل جعله طاقة لتفسير الحاضر.

وهنا تتضح العلاقة بين الأصالة والعالمية:

الأصالة تمنح القصيدة صوته،

والتجربة تمنحها صدقها،

والفن يمنحها قدرتها على العبور،

والإنسانية تمنحها أفقها العالمي.

ولذلك فإن العالمية ليست مقامًا جغرافيًا، وإنما هي مقام جمالي وروحي.

إن القصيدة لا تصبح عالمية لأنها تتحدث عن العالم، وإنما لأنها تجعل العالم يرى نفسه في تجربتها.

وقد ذهب إرنست رينان إلى أن الأمة لا تقوم على عناصر مادية منفردة، بل على الذاكرة المشتركة والإرادة المشتركة والاستمرار في بناء الوجود الجمعي.⁴⁰ ومن هذه الزاوية تصبح القصيدة أحد الأوعية التي تحفظ الذاكرة، لكنها في الوقت نفسه تعيد صياغتها بحيث تصبح قابلةً للانتقال من جيل إلى جيل ومن ثقافة إلى ثقافة.

وهكذا لا تعود الهوية الشعرية جدارًا، بل تصبح جسرًا.

يكشف هذا المحور أن الشعر المصري الحديث يستطيع أن يتحول من خصوصية المكان إلى كونية التجربة دون أن يقطع جذوره.

فالحلية ليست انغلاقًا، والعالمية ليست ذوبانًا؛ وإنما العالمية الحقيقية هي أن تبلغ القصيدة من الصدق في التعبير عن ذاتها حدًا يصبح معه صوتها الخاص قابلاً لأن يسمعه الآخر.

إن الشاعر المصري لا يحتاج إلى أن يترك أرضه لكي يصل إلى العالم؛ بل يحتاج إلى أن ينصت إلى أرضه بعمق أكبر.

فحين يصبح النبل ذاكرةً للحياة، والقاهرة سؤالاً عن الإنسان، والأرض بحثًا عن الجذر، والريح رمزًا للتحويل، تتحول مصر من مكانٍ في القصيدة إلى أفقٍ إنساني فيها. ومن هنا تنتهي الدراسة إلى أن:

ليست العالمية أن تتخلى القصيدة عن لسان الأرض، وإنما أن تجعل لسان الأرض قادرًا على مخاطبة العالم؛ فكلما تعمقت القصيدة في جذورها، اتسع ظلُّها في الآفاق.

الخاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى أن القصيدة المصرية الحديثة لم تقف أمام العولمة موقف الرفض أو الذوبان، بل سعت إلى صناعة منطقةٍ ثالثةٍ يتجاوز فيها جذرُ الهوية وأفقُ العالمية. فاللغة لم تعد مجرد أداة للتعبير، وإنما غدت ذاكرةً للأرض، وحافظةً للوجدان، وجسرًا تعبر عليه الذات المصرية إلى فضاء الإنسان العالمي. وقد كشفت الدراسة أن استدعاء التراث والمكان والنيل والرمز الشعبي والديني لا يمثل ارتدادًا إلى الماضي، بل إعادة إنصاتٍ إلى الجذور من أجل بناء معنى جديد للحاضر. كما أن العولمة، على الرغم مما تثيره من مخاوف الاستلاب وذوبان الخصوصية، تفتح للقصيدة إمكانًا واسعًا للحوار والانتشار والتفاعل الحضاري.

وتؤكد الدراسة، في أفقها النهائي، أن العالمية لا تبدأ حين تغادر القصيدة أرضها، بل حين تجعل من أرضها صوتاً يسمعه العالم؛ فكلما ازدادت القصيدة وفاءً لنبض المكان، ازدادت قدرتها على ملازمة المشترك الإنساني.

النتائج:

خلصت الدراسة، في ضوء التحليل الموضوعي والفني لنماذج من الخطاب الشعري المصري الحديث، إلى جملة من النتائج، من أبرزها:

1. تكشف الهوية في الشعر المصري الحديث عن بنية حية متحركة، لا عن كيان ثابت مغلق، إذ تتشكل من خلال جدلية التفاعل بين التراث والحداثة، وبين الخصوصية المحلية والانفتاح على العالم.
2. تؤدي اللغة الشعرية وظيفة مركزية في حفظ الذاكرة الثقافية والوجدانية، وفي صيانة الخصوصية الحضارية من الذوبان والاستلاب، مع قدرتها في الوقت نفسه على استيعاب التحولات التي تفرضها العولمة.
3. يتجاوز المكان المصري في القصيدة الحديثة حدود الجغرافيا إلى فضاء الرمز والدلالة؛ فالنيل، والمدينة، والأرض، والوطن تتحول من أمكنة محسوسة إلى حوامل للذاكرة والانتماء والاستمرار والحياة.
4. لا تتعارض الخصوصية الثقافية مع الانفتاح على العالمية؛ بل تكشف التجربة الشعرية المصرية أن عمق الانتماء إلى المكان والتراث يمكن أن يكون منطلقاً نحو التعبير عن القيم والأسئلة الإنسانية الكونية.
5. أسهم الرمز والأسطورة والتناص مع الموروث العربي والمصري في إعادة إنتاج الهوية، بحيث لم يعد التراث مجرد مادة مستعادة، وإنما أصبح طاقةً إبداعيةً يعاد تشكيلها وفق أسئلة الحاضر وتحولاته.
6. تعكس التحولات الإيقاعية والبنائية والفنية في القصيدة المصرية الحديثة تحولات موازية في الحساسية الشعرية والوعي الثقافي؛ فقد انتقل الشعر من المحافظة على الأشكال الموروثة إلى تجريب أشكال أكثر قدرة على استيعاب قلق الإنسان المعاصر وأسئلته.
7. استطاعت القصيدة المصرية أن تنقل القضايا المحلية من دائرة الخصوصية إلى أفق الإنسانية؛ فالغربة والوطن والذاكرة والحب والموت، وإن انطلقت من تجربة مصرية محددة، تحولت إلى أسئلة إنسانية تتجاوز الحدود الجغرافية والثقافية.
8. لم تلغ العولمة الهوية الثقافية في الشعر المصري، وإنما اختبرت قدرتها على البقاء والتجدد وإعادة بناء الذات؛ فلم يتخذ الخطاب الشعري منها موقف الرفض المطلق، كما لم يستسلم لها استسلاماً كاملاً، بل سعى إلى إعادة صياغة العلاقة بين الذات والآخر، والمكان والعالم، والتراث والحداثة.

9. تؤكد الدراسة أن قوة القصيدة المصرية الحديثة لا تنبع من الانغلاق على الهوية ولا من الدوبان في الآخر، وإنما من قدرتها على تحقيق توازن خلاق بين الجذور والأفق؛ فهي تستمد أصالتها من الذاكرة والمكان، وتستمد حيويتها من الحوار مع العالم. وتنتهي الدراسة إلى أن القصيدة التي تفقد جذورها تفقد صوتها، والقصيدة التي تخاف العالم تفقد ألقها؛ أما القصيدة الحية فهي التي تمسك بتراب الأرض بيد، وتفتح باليد الأخرى نافذة على العالم. ومن ثم، فإن مستقبل الهوية في الشعر المصري الحديث لا يكمن في العودة إلى الماضي بوصفه ملاذًا مغلقًا، ولا في الارتقاء في فضاء العولمة بوصفه قدرًا محتومًا، وإنما في إبداع صيغة حية للحوار بين الجذور والرياح، وبين ذاكرة الأرض وأفق العالم؛ وهي الصيغة التي تمنح القصيدة قدرتها على أن تكون مصرية في جذورها، إنسانية في رسالتها، وعالمية في ألقها.

التوصيات:

توصي الدراسة بتوسيع البحث في الشعر المصري المعاصر بوصفه فضاء للحوار بين الثقافات، وإيلاء المكان واللغة والتراث مزيدًا من العناية في الدراسات المقارنة، وتشجيع ترجمة الشعر المصري إلى اللغات العالمية مع الحفاظ على خصوصيته الجمالية، فضلًا عن الإفادة من الأدب في بناء خطاب ثقافي يوازن بين رسوخ الجذور واتساع الآفاق.

الهوامش

- ¹ - وافي، علي عبد الواحد. علم اللغة، دار نخب مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1967م، ص: 96-106.
- ² - وافي، علي عبد الواحد. اللغة والمجتمع. ط4، مكتبات عكاظ، جدة، 1983، ص: 5-7.
- ³ - وافي، علي عبد الواحد. علم اللغة، دار نخب مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1967م، ص: 250-252.
- ⁴ - الجابري، محمد عابد. مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997م، ص: 197.
- ⁵ - إبراهيم، حافظ. «اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها». ديوان حافظ إبراهيم، دار الكتب المصرية، ص: 253-255.
- ⁶ - حافظ إبراهيم، «اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها»، ديوان حافظ إبراهيم، ص: 254.
- ⁷ - المرجع نفسه، ص: 254.
- ⁸ - وافي، علي عبد الواحد. علم اللغة، مبحث «اختلاف اللهجات في البلد الواحد باختلاف طبقات الناس وفئاتهم»، ص: 188-193.

- ⁹ - شوقي، أحمد. «يا راكب الريح حي النيل والمهرما». الشوقيات، الطبعة الثانية، الجزء الأول. القاهرة: مطبعة مصر، 1926م، ص. 267.
- ¹⁰ - شوقي، أحمد، القصيدة نفسها، الشوقيات، ج1، ص267.
- ¹¹ - المرجع نفسه.
- ¹² - وافي، علي عبد الواحد. علم اللغة، ص188-193.
- ¹³ - وافي، علي عبد الواحد. اللغة والمجتمع، ط4، مكتبات عكاظ، جدة، 1983، ص: 5-8.
- ¹⁴ - إبراهيم، حافظ. «اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها»، ديوان حافظ إبراهيم، دار الكتب المصرية، ص. 254.
- ¹⁵ - وافي، علم اللغة، ص: 96-106.
- ¹⁶ - شوقي، «يا راكب الريح حي النيل والمهرما»، الشوقيات، ط2، ج1، ص: 267.
- ¹⁷ - سورة الحجرات، الآية: 13.
- ¹⁸ - بن نبي، مالك. شروط النهضة. ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986، ص. 45-48.
- ¹⁹ - المتنبي، أحمد بن الحسين. ديوان المتنبي. تحقيق عبد الوهاب عزام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1944، ج1، ص. 257.
- ²⁰ - سورة الأعراف، الآية: 176.
- ²¹ - شوقي، أحمد. الشوقيات. «استقبال». وقد أثبتت الموسوعة الشعرية النص، وذكرت أن القصيدة من الشوقيات، الطبعة الثانية، ج1، ص267.
- ²² - شوقي، أحمد. الشوقيات، ج1، ص267.
- ²³ - سورة الجاثية، الآية: 5.
- ²⁴ - ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق محمد علي النجار. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1999م، ج1، ص33.
- ²⁵ - عبد القاهر. دلائل الإعجاز في علم المعاني. تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1992م، ص49-50.
- ²⁶ - عصفور، جابر. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1992م، ص31 وما بعدها.
- ²⁷ - شوقي، أحمد. الشوقيات. دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، ج1، ص267.
- ²⁸ - سورة الأنبياء، الآية 30.
- ²⁹ - سورة النور، الآية 35.

- ³⁰ - أنيس، إبراهيم. موسيقى الشعر. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1952م، ص17-25. وانظر: ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، 1981م، ج1، ص128-130. و عبد المطلب، محمد. بناء الأسلوب في شعر الحداثة: التكوين البديعي. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1995م، ص11-25، [1] أبو ديب، كمال. في الشعرية. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م، ص13-28.
- ³¹ - سورة الحجرات، الآية 13.
- ³² - الجابري، محمد عابد. التراث والحداثة: دراسات ومناقشات. الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991م ص5-15. وص: 376.
- ³³ - الجابري، محمد عابد. التراث والحداثة: دراسات ومناقشات. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991 من، الطبعة الأولى، ص29-40.
- ³⁴ - بلقرز، عبد الإله. «العولمة والهوية الثقافية: عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة؟». المستقبل العربي، مج20، ع229، آذار 1998، ص91-99.
- ³⁵ - أدونيس. الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والاتباع عند العرب. ج1: «الأصول». الطبعة الثامنة، دار الساقى، بيروت، 2002م، ص15-30. وانظر: أدونيس. الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والاتباع عند العرب. ج4: «صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري». الطبعة الثامنة، دار الساقى، بيروت، 2002، ص7-20. و أدونيس. الثابت والمتحول. ج3: «صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني». الطبعة الثامنة، دار الساقى، بيروت، 2002م، ص: 248.
- ³⁶ Goethe, Johann Wolfgang von. Conversations of Goethe with Eckermann and Soret. Translated by John Oxenford, Smith, Elder, and Co., London, 1850, pp. 224-225. وانظر كذلك: Strich, Fritz. Goethe and World Literature. Translated by C. A. M. Sym, Hafner Publishing Company, New York, 1949, pp. 1-20.
- ³⁷ - سورة الحجرات، الآية 13.
- ³⁸ - Said, Edward W. Culture and Imperialism. Alfred A. Knopf, New York, 1993, pp. 15-28. وانظر كذلك: Said, Edward W. Reflections on Exile and Other Essays. Harvard University Press, Cambridge, MA, 2000, pp. 173-186.
- ³⁹ - باشلار، غاستون. جماليات المكان. ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1984، ص31-42. والكتاب في أصله:
- Bachelard, Gaston. La Poétique de l'espace. Presses Universitaires de France, Paris, 1957.
- ⁴⁰ - Renan, Ernest. "What Is a Nation?" In Nation and Narration, edited by Homi K. Bhabha, Routledge, London, 1990, pp. 8-22.